ماري بوستجيت

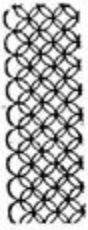

تأليف : رديارد كيبلنج

ترجمة : السيد حامد زعلوك

رديارد كيبلنج (١٨٦٥-١٩٣٦)شاعر وروائى وقصاص انجليزى • ولد بالهند ورسم لها صورة واضحة فى كتاباته واشعاره ، كان أول انجليزى يحوز جائزة نوبل فى الادب سنة ١٩٠٧ •

عندما تركت مس مارى بوستجيت خدمة الليدى ماكوزلاند ، كتبت لها الليدى شهادة تزكية تقول فيها انها على درجة كاملة من الوعى ، منظمة ، حلوة المعشر ، تتصرف كما تتصرف السيدات• اننى فى غايةالأسى لافتراقى عنها ، وسأظل دائما مهتمة بأمر سعادتها ونجاحها •

والحقتها مس فولر بخدمتها بناء على هذه التزكية ، ولدهشتها وهى التى خبرت صحبة الوصيفات والمرافقات •• وجدت هذه الصفات فيها فعلا • كانت مس فولر فى ذلك الوقت أقرب الى الستين منها الى الخمسين ، ولكنها رغم حاجتهاالى من يعنى بها ، لم تكن ترهق من يقومون على رعايتها منأمرهم عسرا• بل على العكس، تجلس اليهموتقصعليهم تاريخ حياتها بطريقة مثيرة عندما تهيجها الذكريات • كان أبوها موظفا صغيرا فى احدى المحاكم ، أيام ذلك المعرض العظيم الذى أقيم فى سنة ١٨٥١ ، وأثبت وقتئذ أن المدينة قد استكملت كل مقوماتها • وعلى أية حال ، فان جانبا من حكايات مس فولر لم يكن يصلح لصغار السن من الشباب • ولم تكن مارى صغيرة السن ، ورغم أن حديثها كان من ذلك النوع الذى لالون له ، تماما مثل عينيها أو مثل شعرها ، فلم تكن تشعر بأى رد فعل أو اندهاش • كانت تستمع بكليتها لكل حكاية من هذه الحكايات فى غير احجام ، ثم تقول فى النهاية « ياله من شىء مثير» • أو تقول : «ياللفظاعة» حسب الاحوال ، وبعد هذا لاتشيراليها مرة أخرى من قريب أو بعيد، فقد كانت تفخر بأن لها عقلا مدربا ، لايجهد نفسه فيمعن التفكيرفى مثل هذه الاشياء وكانت الى جانب هذا معينا من الخبرة لا ينضب فى الحسابات المنزلية ، وكان هذا سببا فى أن تجار القرية، بسجلات حساباتهم الاسبوعية لم يكونوا يحبونها ، وفيما عدا هؤلاء لم يكن لها أى أعداء ، ولم تكن تثير أى شعور بالغيرة حتى بينأكثر الناس سذاجة ، كما أن أحدا لا يرجع اليها قولة سوء أو غيبة أو نميمة لأحد• كانت تستطيع أن تعد مائدة الطعام فى بيت مراعى الابروشية أو فى بيتالطبيب بعد نصف ساعة من اخطارها بالامر ،

وكانت نيابة عنه محبوبة لكبير جدا من الاطفال الصغار فى شوارع القرية ، ممن كان آباؤهم يسارعون الى رفض ما يسمونه (وصاية) تفرض على أبنائهم، وكانت تحضر اجتماعات لجنة التمريض بالقرية نيابة عن مس فولر عندما تعجزها آلام التهاب المفاصل . وظلت مدة ستة أشهر تحضر هذه الاجتماعات التى كانت تعقد بصفة دورية مرة كل أسبوعين . وخرجت من هذه الاجتماعات وقد اكتسبت احتراما يتساوى فى مقداره عند جميع العضوات .

وحين رمى القدر بين يدى مس فولر بابنة أخت يتيمة . تبلغ الحادية عشرة من العمر ، قامت مارى بوستجيت بنصيبها فى تعليم الفتاة طبقا لنظام التعليم فى المدارس الخاصة والعامة . وكانت تراجع قوائم الثياب ، وتحلل محتويات الفواتير التى تحمل مبالغ اجمالية ، وتكتب الخطابات الى نظار المدارس الخاصة والعامة وربات البيوت ، ورئيسات الممرضات ، والممرضات ، والاطباء ، ثم تكتئب او تفرح عند قراءة التقارير الدورية ، وكان ويندهام فولر الشاب ، يكافئها فى أثناء أجازاته فيناديها باسم « عمود البوابة » أو « العمود » أو « فتلة الدوبارة » ، ويلطمها بين كتفيها النحيلتين ، أو يطاردها حول الحديقة وهى تجرى أمامه لاهثة ، وفمها الواسع مفتوح ، وأنفها الكبير مرفوع فى الهواء ، فوق رقبة متصلبة أشبه ما تكون برقبة الجمل .. بعد هذا كان يملأ البيت بالضجيج والمجادلات والخطب الطويلة الرنانة عن حاجاته الشخصية، وما يحب وما لايحب والقيود التى تضعنها (أيتها النساء) ، فتبكى مارى من شدة ما لقيت من تعب جسمانى او تدمع عيناها من شدة الضحك اذا حلا له أن يتخذ جانب المرح وفى المواقف الحرجة التى كانت تتضاعف كلما زاد نموه ، كانت سفيرته والناطقة باسمه عند مس فولر التى لم تكن تحمل كبير عطف أو تفهم لمشكلات الشباب ، وكانت صوتا دائما فى جانبه فى الاجتماعات التى تعقد للنظر فى أمر مستقبله ، وكانت القائمة على شئون طعامه ، والمسئولة مسئولية مباشرة عن ترتيب ثيابه وأحذيته التى يبعثرها فى غير نظام ، كانت هدفا لمعابثاته وخادما ذلولا رهن اشارته .

وعندما قر قراره على دراسة القانون والعمل بالمحاماة ، والتحق بأحد المكاتب الكبرى فى لندن ،وتغيرت تحيته لها من (هاللو ، ياعمود البوابة) الى (صباح الخير يافتلة الدوبارة) ، اشتعلت نيران حرب ضروس ، تختلف عن كل الحروب التى تستطيع مارى أن تذكرها ، حرب لم تتأدب وتظل بعيدة عن انجلترا ، وتقتصر أحداثها على مجرد النشر فى الصحف ، وانما امتدت على أرواح أناس كانوا بين من تعرفهم . وكما كانت تقول لمس فولر ، كانت حربا « مكدرة للغاية» . لقد اختطفت ابن راعى الأبرشية الذى كان يعمل فى التجارة مع أخيه الاكبر ، واختطفت ابن أخت الكولونيل فى ليلة بدء موسم غرس الفاكهة فى كندا ، واختطفت ابن مسز جرانت ، الذى كان ، كما صرحت أمه ، يكرس حياته للخدمة الدينية ، كما اختطفت ، قبل الأوان بكثير ، « وين فولر » الذى بعث اليهم ببطاقة من بطاقات البريد يعلن فيها أنه التحق بالقوات الجوية ، وانه يحتاج الى (بلوفر) من الصوف السميك .

بهذه القوات ، وأن يحصل على (البلوفر) وعلى هذا اشترت مارى الصوف وجاءت بأبر من المقاس المناسب . بينما راحت مسز فولر تقول لمن يعملون فى مؤسستها الصغيرة ـ وكانا بستانيين ورجلا غريب الاطوار .وذهب البستانيان ، وبقى (تشيب) وهو الرجل الغريب الاطوار ، ورقى الى مرتبة الساكنى فى كوخ البستانى . أما الطباخة التى بدأت تحتقر نفسها لبقائها أسيرة حياة الترف والبذخ ، فقد تركت البيت هى الاخرى، بعد مشهد جرى مع مسز فولر، وأخذت معها الخادمة . وأعلنت مس فولر نبأ تعيين نيللى ، ابنة « تشيب » التى تبلغ السابعة عشرة ، فى الوظيفة الخالية ، ونبأ رفع مسز « تشيب » الى درجة طباخة ، على أن تقوم بأعمال النظافة بين حين وحين ، وسارت أمور هذه المؤسسة رخاء بعد هذا النقص الكبير فى عدد الموظفين .

وطلب « وين » زيادة فى المصروف الذى يحصل عليه . فقالت مسز فولر ، وكانت دائما تواجه الحقائق فى شجاعة: « يجب أن يحصل على هذه الزيادة ، فمن المحتمل ألا يعيش ليسحب هذا المبلغ لمدة طويلة . واذا كانت ثلاثمائة تجعله سعيدا ».

وكان « وين » سعيدا ، وحضر الى البيت ، فى بذلته العسكرية التى أقفلت أزرارها باحكام ليعبر عن امتنانه واعترافه بالجميل .لم يكن مركز تدريبه يبعد عنهم بأكثر من ثلاثين ميلا . وكان حديثه حديثا فنيا معقدا للغاية حتى لقد اضطر الى الاستعانة ببعض الرسوم البيانية لمختلف أنواع المكنات لكى

[illegible] هذه الرسوم البيانية .

وقال لها وهو يعطيها الرسم : « يحسن بك أن تدرسيه ، يا عمود البوابة . سوف ترين كثيرا من هذه المكنات فى وقت ليس ببعيد ». ودرست الرسم ، لكن عندما عاد «وين» مرة ثانية ليزهو بنفسه ويتعاظم بين النساء من أهل قريته ، ووجه اليها بعض الأسئلة سقطت سقوطا ذريعا فى الامتحان ، فبدأ يوبخها كما كان يفعل فى الأيام الماضية.

قال فى صوته الجديد الذى يصطبغ بالصبغة العسكرية : « انك تشبهين الآدميين لا أقل ولا أكثر » . لا بد أنه كان لك مخ فى يوم ما من أيام حياتك الماضية . فماذا فعلت به ؟ أين تحتفظين به ان أية نعجة لا بد أن تعرف أكثر مما تعرفين ، يا عمود البوابة . انك تثيرين الرثاء . انك أقل نفعا من صفيحة فارغة ، أيتها البقرة الكسيحة الذاهلة » .

فقالت مسز فولر من مكانها فوق الكرسى ذى العجلات : « أظن أن هذه هى الطريقة التى يخاطبك بها رؤساؤك من الضباط ممن تعلو رتبهم على رتبتك » .

فأجاب «وين» : « ولكن عمود البوابة لا تمانع . أليس كذلك ، يا فتاة الدوبارة ؟ » .

فغمغمت هى تقول : « ماذا ؟ هل كان وين يقول شيئا ؟ سأكون على علم تام بهذا الرسم عند حضورك فى المرة المقبلة » . ثم زوت ما بين حاجبيها الباهتين وانكبت مرة أخرى عددا آخر من الرسوم الهندسية لتصميم بعض المناطيد والطائرات .

وبعد بضعة أسابيع ، أصبحت أنباء المعارك البرية والبحرية التى تقرؤها لمسز فولر بعد تناول الفطور ، تمر بها بطيئة مثل الأنفاس المتكاسلة . كان قلبها واهتمامها هناك فى الهواء مع « وين » ، الذى كان قد أتم فترة التدريب على « الدوران » (وان كانت لا تعرف معنى هذه الكلمة) ، وأنه ذهب فى سيارة أجرة نزل منها الى طائرة أصبحت ملكا خاصا له بطريقة أو بأخرى . وفى صباح أحد الايام دارت بضع دورات حول مداخن بيتهم، ثم هبطت فى قطعة الأرض الفضاء التى يملكها «فيج» ، خارج بوابة الحديقة ، ودخل « وين » الى البيت يصيح فى طلب الطعام . وسحب هو وهى الكرسى ذا العجلات الذى تجلس فيه مسز فولر، كما كانا يفعلان مرارا ، على طول الممشى الذى مهدته الأقدام فى قطعة الأرض الفضاء ، حتى تلقى نظرة على طائرته ذات السطحين . ولاحظت مارى أن « رائحتها كانت كريهة جدا » .

وقال وين : « يا عمود البوابة ، أعتقد أنك تفكرين بأنفك . وأعرف أنك لا تفكرين بعقلك . والآن ، ماطراز هذه الطائرة ؟ » .

فقالت مارى : « سأذهب وأحضر الرسم » .

فصاح فيها قائلا : « أنت انسانة ميئوس منها . أنت لا تملكين المقدرة التى يملكها فأر أبيض صغير » . ثم راح يشرح لها عمل مختلف الأجهزة والعدادات ، وآلات اسقاط القنابل من الطائرة الى أن حل الوقت الذى يركب فيه الطائرة مرة أخرى ويمتطى صهوة السحب المحملة بالأمطار من جديد .

وقالت مارى والطائرة الكريهة الرائحة تلمع وهى تشق الهواء مصعدة فى السماء . آه . انتظروا حتى تبدأ قواتنا الجوية العمل . وين يقول أن الطيران أكثر أمانا من البقاء فى داخل الخنادق.

فقالت مسز فولر : ترى ما الذى سيحدث وقتئذ . أخبرى تشيب بأن يأتى الى هنا ليسحب الكرسى الى البيت مرة أخرى .

فقالت مارى : ان الطريق كله منحدر ويمكننى أن أسحب الكرسى وحدى اذا جذبت أنت «الفرامل» ثم أسندت جسدها النحيل الى القضيب الذى يدفع منه الكرسى ، وبدأتا تنحدران عائدتين الى البيت .

وقالت مسز فولر التى تدثرت بطائفة كبيرة من الثياب، والآن احترسى حتى لايدفأ جسمك وتصابى بالبرد .

فقالت مارى: « لاشىء يجعلنى أعرق» ثم فردت ظهرها عندما أدخلت الكرسى الى دهليز البيت . كان الجهد الذى بذلته قد بعث بشىء من الاحمرار الى خديها ،وفكت الريح خصلة من خصلات شعرها راحت تتراقص فوق جبينها ، ورمقتها مسز فولر بنظراتها .

وسألتها على حين غرة : ما الذى تفكرين فيه دائما ، يامارى ؟

ـ أوه ، يقول وين انه يريد ثلاثة جوارب أخرى من الصوف ، تكون ثقيلة بقدر ما نستطيع .

ـ نعم . ولكننى أقصد الاشياء التى تفكر فيها النساء . هانتذى قد جاوزت الاربعين من العمر .

فقالت مارى فى صدق : الرابعة والاربعين .

ـ حسنا .

ـ حسنا ؟ وتركت مارى كتفها لمسز فولر تستند اليه كالعادة .

ـ هاقد مضى عليك معى حتى الآن عشر سنوات كاملة ٠

فقالت مارى : دعينى أر ٠ كان «وين» فى الحادية عشرة من عمره عندما جاء الى هنا ٠ وهاهو ذا قد بلغ العشرين الآن٠ ولقد جئت قبله بسنتين ٠ فيكون قد مضى على وجودى هنا احدى عشرة سنة ٠

ـ احدى عشرة سنة ولم يحدث أن أخبرتنى بشىء ذى قيمة على الاطلاق طوال هذه السنين ٠ واذا رجعت الى الايام الماضية، بدا لى أننى أنا التى قمت بكل الكلام ٠

ـ أخشى أننى لست محدثة ممتازة وكما يقول «وين» فانى لست واسعة الادراك ٠ دعينى أخلع عنك قبعتك ٠

وتحركت مسز فولر فى توتر ، وطرقت بلاط أرض الردهة بطرف عصاها المغطى بالمطاط ٠

مارى ، ألست أى شىء آخر سوى مرافقة؟ هل كان يمكن اطلاقا أن تكونى أى شىء آخر سوى مرافقة ٠

علقت مارى القبعة فى مكانها من الشماعة ، وقالت بعد تفكير : لا ، لا أتخيل أن باستطاعتى أن أكون ٠ ٠ ولكن ليست لى القدرة على التخيل ، للأسف ٠

وجاءت لمسز فولر بكوب الدواء الذى تتناوله فى الساعة الحادية عشرة ٠

كانوا فى ذلك الوقت فى شهر ديسمبر الرطب ، وفيه يسقط المطر بمعدل ست بوصات ، ولا تغادر النساء البيوت الا نادرا ٠ وزارتهم مركبة وين الطائرة مرات كثيرة ، وظلت مارى صباحين متتاليين (وكان قدأبلغها ببطاقة بريد) تسمع أزيز محركات طائرته مع الفجر ٠ وفى المرة الثانية جرت الى النافذة، وراحت تحملق فى السماء التى يتحول سوادها رويدا رويدا الى بياض يبشر بصبح جديد ٠ ومرت الطائرة من فوق رأسها على ارتفاع كبير وكأنهانقطة فرفعت نحوها ذراعيها الناحلين ٠

وفى الساعة السادسة من مساء اليوم ذاتهجاءتهم اشارة رسميةداخل مظروف حكومى تفيد بأن الملازم ثان «و٠فولر» قد قتل فى أثناء طيرانه فى رحلة تجريبية ، وأن الوفاة كانت سريعة ٠٠ وقرأت الاشارة ثم حملتها الى مسز فولر ٠

وقالت مسز فولر بعد أن علمت بالنبأ : لم أتوقع أبدا شيئا غير ذلك ٠ لكن يحزننى أن يحدث هذا قبل أن يقوم بأية عملية ٠

كانت الغرفة تدور بمارى بوستجيت كما تدور الدوامة ، ولكنها وجدتنفسها تقف ثابتة تماما فى وسط الغرفة ٠

وقالت : نعم ، مما يثير الرثاء أنه لم يمت فى احدى العمليات بعد أن يكون قد قتل أى انسان ٠

واستطردت مسز فولر تقول : كانت الوفاة سريعة ، وهذا يخفف قليلا من وقع المصاب ٠

فقالت مارى ، وهى تستشهد بكلام «وين» : ولكن «وين» يقول ان صدمة الخوف من السقوط تقتل الانسان فى الحال ، مهما حدث لخزانات البنزين ٠

كان الهدوء قد بدأ يخيم على الغرفة ، وسمعت مس فولر تقول بصبر نافد : ولكن لماذا لانستطيع أن نبكى يامارى ؟ وسمعت نفسها تجيب قائلة : ليس هناك ما يدعو الى البكاء ٠ لقد أدى واجبه تماما مثلما فعل ابن مسز جرانت ٠

فقالت مسز فولر : وعندما مات ٠٠ جاءت هى وظلت تبكى الصباح بطوله ٠

ان هذا وحده يجعلنى أشعر بالتعب ·· التعب الشديد · هل لك فى ان تأخذى بيدى الى فراشى ، يامارى ؟ وأظن اننى أميل الى استعمال قربة الماء الساخن الليلة ·

وساعدتها مارى ، ثم جلست بجانب الفراش ، تتحدث عن «وين» وهو فى فورة الشباب ·

وقالت مس فولر فجأة : أعتقد ان كبار السن والصغار كذلك يتخطون مثل هذه الصدمة، أما من هم فى أواسط العمر فانهم يحسون وقعها أكثر من غيرهم ·

فقالت مارى وهى تهب واقفة : أعتقد أن هذا صحيح · سأذهب الآن لأخلى غرفته مما بها من أشياء · ألن ترتدى ثياب الحداد ؟

فقالت مسز فولر : قطعا ، لا · فيما عدا الجنازة بالطبع · أنا لن أستطيع الذهاب · أما انت فستذهبين · أريد منك أن تتخذى الاجراءات لدفنه هنا · ويالها من نعمة أن هذا لم يحدث فى سالسبورى ·

كان الجميع ، ابتداء من كبار رجال القوات الجوية الى راعى الأبرشية ·· يبدون نحوهم غاية العطف ويشاركونهم فى الاحساس بالالم · ووجدت مارى نفسها فى تلك اللحظة فى عالم كانت الاجسام البشرية تنقل فيه بجميع أنواع وسائل النقل الى جميع أنواع الأماكن والبلاد · وفى أثناء الجنازة وقف الى جانب القبر شابان من زملائه يرتديان ملابسهما العسكرية وقد زرراها باحكام وتحدثا اليها بعد أن انتهى كل شىء ·

قال أحدهما : أنت مس بوستجيت ، اليس كذلك ؟ (فولر) حدثنى عنك كان شابا طيبا ـ زميلا من الطراز الاول ـ خسارة فادحة ·

فزمجر رفيقه مؤمنا : خسارة فادحة اننا جميعا شديدو الحزن عليه ·

وهمست مارى : وما الارتفاع الذى سقط منه ·

ـ لابد أنه يقرب كثيرا من أربعة آلاف قدم ، اليس كذلك ؟ الم تكن طائرا فى ذلك اليوم ، يامنكى ؟

فأجابه الشاب الآخر : تماما ، كان مؤشر الارتفاع فى طائرتى يشيرالى ثلاثة آلاف قدم ، وكنت منخفضا عنه بكثير ·

فقالت مارى : هذا حسن اذن· شكرا جزيلا لكما ·

وشرعا فى الانصراف فى الوقت الذى ارتمت فيه مسز جرانت باكية على صدر مارى العريض ، عند مدخل المقبرة وهى تصرخ : أنا أعلم بوقع المصاب ، أنا أعلم بوقع المصاب ·

وردت مارى وهى تبعدها عن صدرها قائلة : ولكن أبويه كليهما قد ماتا من قبل · ثم أضافت قائلة فى غموض وهى تهرب منها الى العربة التى كانت تنتظر: ربما يكونون الآن قد التقوا كلهم ·

وواولت مسز جرانت قائلة : لقد فكرت فى هذا أيضا · ولكنه عندئذ سيكون غريبا عنهم من الناحية الفعلية شىء محير تماما ·

نقلت مارى بأمانة كل صغيرة وكبيرة مما حدث فى أثناء الجنازة الى مس فولر التى ضحكت عالية عندما وصفت لها مارى سورة مسز جرانت ·

ـ أوه ، كم كان «وين» يستمتع بمثل هذا المنظر · لم يكن أحد يستطيع أن يعتمد عليه أبدا فى الجنازات · هل تذكرين ، وراحتا تتحدثان عنه من جديد وكل منهما تضيف ما تنساه الاخرى

الى أن قالت مس فولر : والآن لنعلن الستائر ولنقم ببعض الترتيب العام . هذا يفيدنا دائما فائدة كبيرة . هل اعتنيت بأشياء «وين» .

فقالت مارى : بكل شيء ـ منذ قدم الى هنا لاول مرة . لم يكن ميالا الى الاتلاف مطلقا ـ ولا حتى مع لعبه .

وواجها الغرفة الانيقة .

وقالت مارى أخيرا : لا يمكن ان يكون طبيعيا ألا نبكى . اننى أخشى عليك كثيرا من رد الفعل .

ـ كما قلت لك . فاننا نحن العجائز نتخطى مثل هذه الصدمة . أنت هى التى أخاف عليها من رد الفعل . هل بكيت بعد ؟ .

ـ « لاأستطيع أن أبكى . ان هذا يجعلنى أشد نقمة على الألمان » .

فقالت مس فولر : « هذا اسراف فى القضاء على ما فينا من حيوية كامنه . يجب أن نعيش الى أن تنتهى الحرب » . ثم فتحت صوانا مكتظا بالثياب . « والآن ، لقد كنت أقلب الرأى فى كثير من المسائل . وهذه هى خطتى . كل ثيابه المدنية يمكن أن نتبرع بها ـ للاجئين البلجيكيين ، ومن اليهم » .

وأطرقت مارى برأسها « وأحذيته ، وياقاته ، وقفازاته ؟ »

ـ « نعم . لا حاجة بنا لأن نحتفظ بشيء سوى حزامه وقلنسوته » .

ـ « لقد جيء بهما أمس مع بقية ملابسه العسكرية » ـ وأشارت مارى الى لفافة ملقاة فوق السرير الحديدى الصغير .

ـ « آه . ولكن احتفظى بثياب الخدمة . قد يسر بها أحد فيما بعد . هل تذكرين مقاييس ثيابه ؟ »

ـ « الطول خمسة أقدام وثمانى وصاية . نصف . ومحيط الصدر ست وثلاثون بوصة . ولكنه أخبرنى أن محيط صدره بمقدار بوصه ونصف بوصة . سأسجل هذه المقاييس على بطاقة أشبكها على الكيس الذى يضم هذه الثياب » .

فقالت مس فولر وهى تنقر على راحه احدى يديها بالأصبع الوسطى من يدها الأخرى . « اذن انتهينا من هذا . ياله من اسراف زائد ! . غدا نحضر حقيبة ثيابه المدرسية ونجمع فيها ثيابه المدنية » .

فقالت مارى : « والباقى ؟ كتبه وصوره ولعبه ـ و ـ والباقى ؟ »

فقالت مس فولر : « أن نحرقها جميعا . عندئذ سنعرف الى أين انتهت ولن يستطيع أحد أن يلمسها من بعده . ما رأيك ؟ »

فقالت مارى : « أعتقد أن هذا هو خير حل . ولكن توجد كمية كبيرة جدا منها » .

فقالت مسز فولر : « نحرقها فى فرن الحريق » .

وكان هذا فرنا مقاما فى الخلاء يستعمل لاحراق القمامة والنفايات والتخلص منها ، وهو على هيئة برج دائرى صغير من الطوب المضغوط يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام قائم فوق شبكة من الاسياخ الحديدية المتقاطعة . وكانت مس فولر قد رأت تصميمه فى احدى الصحف الخاصة بفلاحة البساتين من سنين مضت ، فأمرت باقامته فى آخر الحديقة . كان شيئا يرضى روحها التى تنزع الى النظام ، فقد وفر عليها رؤية منظر أكوام القمامة التى لاتطاق ، فضلا عن أن الرماد المتخلف كان يخفف من صلابة الارض الطينية الجافة .

وأعملت مارى التفكير لحظة ، فرأت السبيل أمامها واضحا ، وأطرقت برأسها مرة أخرى · وقضت المرأتان المساء تحرمان البدل المدنية التى تذكرانهما جيدا ، والثياب الداخلية التى كانت مارى قد وضعت لها علامات مميزة ، وأكداس الجوارب وأربطة العنق الزاهية الالوان · واحتاج الامر الى حقيبة ثانية ، ثم صندوق صغير آخر ، حملها فى ضحى اليوم التالى تشيب وأحد الحمالين الى احدى العربات · وكان راعى الابرشية لحسن الحظ يعرف ابنا لأحد أصدقائه يبلغ طوله خمسة أقدام وثمانى بوصات ونصف بوصة ، يرحب كثيرا بالحصول على طاقم كامل من ثياب القوات الجوية ، فأرسل ابن البستانى لكى يسلمها اليه · وعلقت القلنسوة فى غرفة نوم مس فولر ، كما علق الحزام فى غرفة مس بوستجيت ، فلم تكن بهما رغبة ، على حد قول مس فولر ، لأن تجعلا من القلنسوة والحزام مادة للحديث على مائدة حفلات الشاى ·

وقالت مس فولر : « انتهينا من هذا ، وساترك لك الباقى ، يا مارى ، فانا لاأستطيع أن أجرى رائحة غادية فى الحديقة · يحسن بك أن تأخذى سلة الغسيل الكبيرة وتأخذى نيللى لكى تساعدك » ·

فقالت مارى : « سآخذ عربة اليد الصغيرة وأقوم بكل شىء بنفسى » · وأقفلت فمها لأول مرة فى حياتها ·

كانت مس فولر ، فى أوقات غضبها ، تطلق على مارى لقب المثالية العنيدة · وارتدت أقدم ثيابها الواقية من المطر ، وقبعتها ، حذاءها الواسع الذى لا يثبت فى قدميها ، فقد كانت حالة الجو تنذر بقرب هطول المزيد من المطر ، وجمعت مواد اشعال النار من المطبخ ، وكمية صغيرة من الفحم ، وحزمة من عيدان الحطب · وحملت هذه الاشياء فى عربة اليد الصغيرة فوق ممرات الحديقة المغطاة بالحطب الى مكان كثير العشب تحيط به أشجار الغار المبتلة بماء المطر ، حيث يقوم فرن الحريق تظلله ثلاث من شجرات البلوط تقطر فروعها المطر من فوقه · وتسلقت السور الحديدى ونزلت الى حقل الأبرشية خلف الفرن · وبعد هذا ظلت تقطع الرحلة بين الفرن والبيت ، مارة فى كل مرة بوجه مس فولر الممتقع وهو يطل من نافذة الحجرة التى تقضى بها فترة الصباح ، تحمل فى عربة اليد سلة الغسيل ، مغطاة بفوطة ، تملؤها بمتعلقاته من لعب وكتب مدرسية ، وأطالس ، وأكوام من اعداد غير مسلسلة من مجلة « هواة الدراجات البخارية » و « العربات الخفيفة » ، وكتالوجات عن المعارض المختلفة ، وبقايا أسطول من اليخوت والمراكب الشراعية الصغيرة تتراوح أثمانها بين تسعة بنسات للمركب الصغير وستين شلنا للبخت الكبير ، وثوب من ثياب المدارس الاعدادية ، ومجموعة من المضارب تتراوح أثمانها بين ثلاثة شلنات ونصف وبين أربعة وعشرين شلنا ، وكرات للتنس والكريكت ، وطائفة من القطارات بعضها يعمل بالبخار وبعضها يعمل بالزنبركات ، بقضبانها الملتوية ، ونموذج لغواصة من الصفيح مدهونة باللونين الرمادى والاحمر ، وجرامفون قديم وأسطوانات مشدوخة ، ومضارب للجولف كان لابد لمارى من كسرها فوق ركبتها كما فعلت بمجموعة العصى التى كان يستعملها فى سيره ، وحربه

كان يقذفها أثناء اللعب ، ومجموعه من الصبور الفوتوغرافية لفرق كرة القدم والكريكت فى المدارس الخاصة والمدارس العامة ومجموعة من آلات التصوير الشمسى ، والافلام ، وبضع كئوس من النحاس الاصفر وكأس من الفضة الخالصة ، نالها فى مسابقات الملاكمة وسباق الحواجز للناشئين

وأكداس من الصور المدرسية ، وصورة مس فولر ، وصـــورة لها ، كان اخذها منها على سبيل المزاح (وحرصت على ألا تطلبها منه · » ، ولم يعدها اليهـــا ، وصندوق للعب به درج سحرى، وطائفة كبيرة من الثياب الصـوفية والاحزمة ، والملابس الداخلية ، وحذاء جـديد لم يخرجه من علبته ، وحزمة تضم جميع الخطابات التى أرسلتها هى ومس فولر اليه ، وقد احتفظ بها كل هذه السـنين لسبب لابد غير معقول ، وكراسة تضم محاولة ساذجة فى كتابة اليوميات بهـا وصف لخمسة أيام ، وطائفة من الصور لسباق السيارات ، كل منها داخل اطار، وكميات من الاشياء المختلطة ، وصناديق العـــدد المختلفة ، وفخاخ الارانب ، والبطاريات الكهربائية وأدوات اللحام ، والمناشير ، وألعاب الحواة ·

كانت مس فولر تراقبها من مجلسها خلف النافذة وهى تروح وتغدو ،فقالت لنفسها : « ان مارى امرأة عجـوز · اننى لم أفطن الى هذا مطلقا من قبل »·

وبعد الغداء نصحتها بأن تنال قسطا من الراحة ·

فقالت مارى : « أنا لاأشعر بتعب على الاطلاق · لقد رتبت كل شىء · سأذهب الى القرية فى الساعة الثانية لكى أشترى بعض الـــكيروسين · ليس عند نيللى ما يكفى ، وسوف يفيدنى المشى كثيرا » ·

وأجرت تفتيشا أخيرا فى أرجاء البيت قبل أن تبدأ المسير ، فوجدت أنهـا لم تغفل شيئا · وبدأ الضباب يتجمع فى اللحظة التى انتهت فيها من قطعة الارض الفضاء التى يملكها « فيج » ، حيث اعتاد وين أن يهبط بطائرته ـ وبدا لها أنهـا تكاد تسمع ازيز محركات طائرته فوق رأسها ، ولكن لم يكن فى السمـــاء مايرى · وفردت مظلتهـــا ثم قذفت بنفسها فى هذا الجو الممطر العاصـــف وراحت تسير على غير هدى الى أن صارت فى داخل حدود القرية الخاوية · وبينما هى تغـادر دكان « كيد » تحمل زجاجة مليئة بالكيروسين فى حقيبة حوائجهـا المصنوعة من الخيوط السميكة ، قابلت الممرضة « ايدن » ، ممرضـــة القرية ، وبدأت تجاذبهـــا أطراف الحديث . كالعادة ، عن أطفال القرية · وكانتا على وشك الافتراق أمام حانة « رويال أوك » عندما سمعتا صوت مدفع ينطلق ، خلف البيت مبـاشرة ، تبعه صراخ بدأ حادا ثم بدأ يخفت حتى تحول الى أنين ·

وقالت الممرضة « ايدن » مستجيبة للموقف : « حادث · » ثم اندفعت تعبر الحانة الخاليـــة ، ومارى فى أثرهـا · ووجدتا مسز « جيريت » زوجة صاحب الحانة ، وهى لاتستطيع أن تفعل شيئا سوى أن تتنفس فى صـعوبة وتشـير نحو الفناء الداخلى للحـانة ، حيث كان المخزن الصغير الذىتوضع فيه عربة نقل الخمور ، ينزلق متهدما على أحد جوانبه وسط قرقعة تهشم البلاط الذى يغطى أرضيته · ونزعت الممرضـــة « ايدن » ملاءة علقت أمام النار كى تجف ، وجرت الى الفناء فالتقطت شيئا من فوق الارض رفعته بين يديها وأحاطتـــه بالملاءة · وتحولت الملاءة ونصف ثياب الممرضـة الى اللون الاحمر القـــانى وهى تدخل بحملها الى المطبخ · كانت (ادنا جيريت) الصغيرة ، التى تبلغ التاسعة من العمر والتى تعرفها مارى منذ كانت أمهاتحملها فى عربة الاطفال ·

وتســـاءلت (ادنا) قائلة : (هل اصـــابتى بالغة ؟) ثم ماتت بين يدى الممرضـــة (ايدن) التى كانت دماء الصبية تقطر منهما · وســـقطت الملاءة جانبا ، وقبل أن تستطيع مارى اغماض

عينيها ، لمحت الجسد المسجى وقدتمزق شر ممزق ·

عجيب أنها استطاعت أن تنطق · ما هذا الذى حدث بحق السماء ؟ » ·

فقالت مارى : « قنبلة » ·

ـ « منطاد آخر من مناطيد زبلن ؟ »

ـ « لا ، بل طائرة · أظننى سمعت محركاتها فوق قطعة الارض الفضاء · ولكنى ظننت أنها احدى طائراتنا· لابد أنهـا أوقفت محركاتها وهى تهبـط الى أسفل ـهذا هو السبب فى اننا لم ننتبه اليها » ·

فقالت الممرضـة ، وهى ترتعد وقد ابيض وجهها من شدة الغضب: « أولئك الخنازير القذرون · تأملى الورطـة التى أنا فيهـا · اذهبى وأبلغى الدكتـور «هينيس» يا مس «بوستجيت» · قالت هذا ونظراتها تتجه نحو الأم التى كانت قد خرجت مفشـيا عليهـا ووجهـا الى الارض ، ثم قالت : « انها نوبة اغماء · اقلبيها ليصير وجهها الىأعلى » ·

وحركت « مارى » « مسز جريت » حتى صـار جنبهـا الأيمن الى أعلى ، واسرعت تسـعى فى طلب الطبيـب · وعندما قصت عليه القصة ، طلب اليها أن تبقى فى غرفة العمليات حتى يحضر لها شيئا تشربه ·

فقالت : « ولكنى اؤكد لك أننى لا أحتاج لشىء · لا اظن أن من الحكمة أن نخبر مس فولر بشىء مما حدث، أم أنك ترى أن نخبرها؟ ان قلبها حساس للغاية فى هذا الجو » ·

ونظر اليها الدكتور « هينيس » فى اعجاب وهو يعد حقيبة أدواته ·

ثم قال : « لا ، لا تخبرى أى انسان الى أن نتـاكد » · ثم أسرع الى حـانة « رويال أوك » على حـين مضـت مارى فى طريقها الى البيت ومعها الكيروسين· وكانت القرية التى خلفتها من ورائهـا ساكنة كالعادة فلم يكن الخبر قد ذاع بعد · وعبس وجههـا قليلا ، واتسعت فتحتا أنفها بصورة منفرة ، ومن حين لآخر راحت تغمغم بعبارة كان «وين» ، الذى لم يكن يكبح جمـاح نفسه امام النسوة من أهل قريته ، يصف بهـا الاعداء · « الكفرة ، السفاحون · انهم فعلا كفرة سـفاحون » · ثم أكملت الحديث لنفسها ، وهى تعود الى المبدأ الذى وطنت عليه نفسها قائلة : «ولكن يجب ألا يجهد المرء عقله بالتفكير فى مثل هذه الاشياء » ·

وقبل أن تصل الى البيت ، لحق بهـا الدكتور هينيس فى عربتـه ، وكان كونستبلا خاصا فى فرقة الدفاع المدنى كذلك ·

وقال لها · «أوه ، يامس بوستجيت، كنت أريـد أن أخبرك بأن حادثة حانة «رويال أوك» كانت نتيجة لتهدم مخزن «جيريت» · كان وجوده خطرا منذ وقت طويل · كان الواجب أن يهدم » ·

فقالت مارى : «أظننى سمعت صوت انفجار أيضا» ·

ـ «ربما انخدعت بفرقعة كتل الخشب وهى تتحطم · كنت أراقبها منذ مدة · كانت متآكلة نخرها السـوس فى كل اجزائهـا · وبالطبع ، عندما تحطمت صدرت عنها ضجة تشـبه صوت اطلاق المدفع » ·

فقالت مارى فى أدب جم : «أحقا؟» واستمرت فى الكلام ، وهو ما زال يحدجها بناظريه : «كانت اونا المسكينة تلعب تحت سـقفه · فمزقتهـا كتل الخشـب وبلاط الارضية اربا اربا ، أفهمت ؟ ·

فقالت مارى وهى تهز رأسها : «لقد رأيتها ، وسمعتها كذلك » .

وغير الدكتور هينيس لهجته تماما وهو يقول : حسنا ، لايمكن أن نكون متأكدين. اننى أعرفك وأعرف المرضة « ايدن ولقد تحدثت معها » وأعلم أنكما أهل للثقة ، وأستطيع أن أعتمد على أنكما لن تخبرا أحدا بشىء ـ فليس من الخير اثارة حفيظة الناس الا اذا ـ »

فقالت مارى : « أوه ـ أنا لا أفعل هذا أبدا ـ على أية حال » . ومضى الدكتور هينيس فى طريقه الى عاصمة المقاطعة .

وقالت فى نفسها انه ، رغم كل شىء ، قد يكون تهدم المخزن القديم فعلا هو الذى فعل هذا كله بادنا الصغيرة المسكينة . وكانت نادمة على مجرد أنها لمحت فى حديثها الى أشياء أخرى، ولكن المرضة «ايدن» ليست حكيمة فحسب، بل انها الحكمة ذاتها . وفى الوقت الذى وصلت فيه الى البيت بدا لها أن الحادث يتقادم بسرعة متزايدة لفظاعته المخيفة . وما ان دخلت الى البيت حتى أخبرتها مس فولر أن طائرتين مرتا منذ نصف ساعة .

فردت قائلة : « أظن اننى سمعتهما. سأنزل الى الحديقة الآن . لقد أحضرت الكيروسين » .

ـ « نعم ، ولكن ـ ما الذى تحملينه داخل حذائك ؟ انه يقطر ماء . البسى غيره على الفور » .

ولم تصدع مارى بالامر فتلبس حذاء آخر فحسب ، وانما لفت الحذاء المبتل فى ورق جريدة قديمة ووضعته فى حقيبة الحوائج مع الزجاجة ، ثم خرجت الى الحديقة بعد أن تسلحت بأطول قضيب من الحديد يستعمل لتحريك النار فى المطبخ .

وكان آخر ما سمعت قول مس فولر: «بدأ المطر يهطل مرة أخرى . ولكن ـ اننى أعلم انك لن تكونى سعيدة حتى تنتهى من هذا العمل » .

ـ « انه لن يستغرق وقتا طويلا . لقد نقلت كل شىء الى هناك ، وأحكمت غطاء فرن الحريق حتى لا يتسرب اليه ماء المطر » .

كان المكان يسبح فى ضوء الشفق فى الوقت الذى انتهت فيه من اعداد كل شىء وسكبت الكيروسين . وعندما أوقدت عود الثقاب الذى سوف يحرق قلبها ويحيله الى رماد ، سمعت صوت توجع وأنين يصدر من خلف أشجار الغار البرتقالية الكثيفة .

ونادت فى صبر نافد : « تشيب؟ » ولكن «تشيب» الذى يعانى من روماتيزم قديم يجعله يلوذ بكوخه المريح هو آخر انسان يمكن أن يدنس هذا الحرم المقدس . فقالت مستنتجة : لا بد أنه صوت الاغنام ، ثم قذفت بعود الثقاب الى الفرن . واشتعلت النار داخل الفرن بصوت يشبه الزئير ، وعجلت أضواء ألسنة اللهب بانتشار الظلام فيما حولها .

وقالت فى نفسها : « كم كان «وين» يحب منظرا مثل هذا . » وخطت الى الخلف لتتقى وهج النار . وعلى الضوء الذى ينبعث من اللهب رأت مارى ، خلف شجرة غار تبعد عن مكان وقوفها خمس خطوات ، رجلا عارى الرأس يجلس فى تصلب شديد عند قاعدة احدى شجرات البلوط . ورأت فرعا ضخما من فروع الشجرة قد انكسر وسقط فى حجره ، وبرزت من تحته

رجل تلبس فى قدمهـا فردة حذاء من أحذية الجنود وكان رأسه يتحرك من جانب الى آخر بغير انقطاع، ولكن جسمه كان ثابتـا مثل جذع الشجرة · وكان يرتدى ـ وهنا تحركت جانبـا لتراه بوضوح أكثر ـ بدلة عسكرية تشبه بدلة «وين» لها قلابة فوق الصدر مقفلة بأزرار ، وظنت لحظة أنه ربمـا كان أحد الطيارين الشبان الذين قابلتهم فى أثناء تشييع الجنـازة · ولكن رؤوس هؤلاء كانت ذات شـعر داكن أملس ، أما رأس هذا الرجل فشاحب اللون كأنه رأس طفل صغير ، وكان ذا شعر قصير لدرجة أنها رأت من تحته الجلد الممتقع الذى يبعث على الاشـمئزاز · وكانت شفتاه تتحركان ·

فتقدمت منه مارى وانحنت نحـوه قائلة : « ماذا تقول ؟ »

وغمغم يقول بالالمانية : « سيدتى · سيدتى · سيدتى · » بينما راحت يداه تتشبثان بأوراق الشـجرة الميتة التى بللها المطر · ولم يساورها أى شك فى جنسيته · وأغضبها هذا بدرجة فائقة فخطت نحو فرن الحريق رغم أن النار لم تكن هدأت أو حان الوقت لاستعمال القضيب الحديدى لتحريكها · وبدا أن النار تلتهم كتب «وين» بطريقة مرضية· ونظرت الى شجرة البلوط التى يجلس الرجل عند قاعدتهـا ، فرأت عددا من الفروع العليا الخفيفة وفرعين أو ثلاثة من الفروع السفلى المتسوسةقد انكسرت وانتشرت أوراقها فوق أرض الممر المؤدى الى المكان الذى تقف فيه · ورأت قبعة ذات خيوط مثبتة اليها قد استقرت فوق نتوء تبقى من أحد الفروع السفلى ، بدت لهـا على ضوء السنة اللهب المتراقصة أشبه شىء بعش طائر من الطيور · ثبت لها أن هذا الشخص قد اخترق الشجرة أثناء سقوطه · فمن قبل أخبرها «وين» أن من الممـكن أن يسقط النـاس من الطائرات · كذلك أخبرها بأن الاشجار أدوات نافعـة لكسر حـدة سـقوط الطيارين ، ولكن فى هذه الحالة الراهنة لا بد أن الطيار قد أصيب بكسور فى أنحاء جسمه والا لتحرك من هذا الوضع الشاذ الذى هو فيه· وبدا لها انه عاجز تماما فيماعدا وجهه المخيف الذى لايكف عن الحـركة · ومن ناحيـة أخرى ، استطاعت أن تلمح غمد مسدسه معلقا فى حزامه ـ وكانت مارى تنـفر من المسدسات · فمنذ بضعة شهور مضت، وبعد أن فرغت هى ومس فولر من قراءة بعض البلاغات الحربية عن المعـارك فى بلجيكا ، كانت لهما جولة مع واحد من هذه المسدسات ـ كان مسدسا ضخما له رصاصات مفلطحة عند مقدمتها ، قال « وين » ان استعمالهـا ضد أعـداء متحضرين أمر تحرمه قوانين الحرب · وردت مس فولر قائلة : « انه مناسب لنا بما فيه الكفاية· اشرح لمارى الطريقة التى يعمل بها » · فاصطحب « وين » مارى التى راحت ترمش بعينيهـا من شـدة الذعر ، الى مكان قريب ، وهو يضحك من مجرد التفـكير فى امكان وجود حاجة اليه ، وشرح لهـا الطريقة التى تطلق بها هذه الآلة القاتلة · ان هذا المسدس الآن قابع فى درج منضدة الزينة العلوى الى اليسار ـ تذكارا غاليا لا يدخل فى قائمة الاشياء التى تحرق· انه «وين» لا بد سيسر عندما يرى أنها لا تخاف شيئا ·

وانفلتت الى البيت لاحضاره · ولما عادت تحت وابل المطر ، كانت العينان فى ذلك الرأس مملوءتين بالامل· وحتى

الم حاول أن يبتسم . ولكن أركانه تهدلت لمرأى المسدس مثلما تهدلت أركان فم « ادنا جيريت » . وانحدرت دمعة من احدى العينين ، وراح الراس يتدحرج يمنة ويسرة من كتف الى كتف كانما يريد أن يشير الى شيء .

وصاح فى كلمات متقطعة: «مكسور. كلى مكسور » .

فقالت مارى فى اشمئزاز : « ماذا تقول؟ » وهى حريصة على أن تظل بعيدة عنه رغم أن الراس وحده هو الذى يتحرك .

فردد قوله : مكسور . ساعدينى . الطبيب . الطبيب .

فقالت ، وهى تستجمع محصولها الصغير من الكلمات الالمانية لتقف الى جانب المسدس الكبير : « لا. لقد رأيت بعينى راسى كيف مات الآخرون » .

وهدأ الراس وبقى ساكنا . وكانت مارى قد حرصت على ابقاء أصبعها بعيدا عن الزناد خوفا من الحوادث . وبعد انتظار استغرق فترة وجيزة ، عادت الى فرن الحريق ، حيث كان اللهب قد بدأ يخمد ، وحركت كتب « وين » المتفحمة بالقضيب الحديدى . ومرة أخرى راح الراس يزمجر فى طلب الطبيب .

وقالت مارى فى تبرم وهى تضرب الارض بقدمها : « كفى . كفاك ضجة أيها الكافر السفاح » .

تدفقت الكلمات من فمها فى نعومة وفى غير تصنع . كانت كلمات «وين» ذاتها ، وكان «وين» سيدا مهذبا لايمكن لأى سبب فى الوجود أن يمزق جسد «ادنا» الصغيرة الى تلك الكتلة المختلطة من الشرائح والأشلاء الدامية . أما هذا الشيء المكوم عند قاعدة شجرة البلوط فقد فعل . لم يكن الموضوع الآن مجرد قراءة اخبار الفظائع من الصحف على مسمع فولر . لقد رأت مارى المنظر بعينيها على منضدة المطبخ فى حانة «رويال أوك» . يجب ألا تجهد عقلها بالتفكير فى مثل هذه الاشياء . والآن مات « وين » ، وكل الاشياء التى تمت اليه بصلة تتكوم وتنتشر فى الفرن ، بفعل القضيب الحديدى الذى راحت يدها تقلب به النار فى انشغال ، ثم تتحول الى تراب أسود وذرات من رماد . ان هذا الشيء القابع أسفل شجرة البلوط يجب أن يموت كذلك . لقد رأت مارى الموت أكثر من مرة ، فهى تنحدر من أسرة لأفرادها ، كما أخبرت مس فولر . « مهارة فائقة فى الموت تحت أسوأ الظروف » . لسوف تبقى حيث هى حتى تقتنع تمام الاقتناع بأن ذلك الشيء قد مات ـ تماما كما مات ابوها فى أواخر القرن التاسع عشر ، وعمتها مارى فى سنة ١٨٨٩ ، وكما ماتت امها فى سنة ١٨٩١ وابن عمها «ديك» سنة ١٨٩٥ ، وكما ماتت مدبرة منزل الليدى «ماكوزلاند» سنة ١٨٩٩ ، وكما ماتت أخت الليدى ذاتها سنة ١٩٠١ ، ولقد دفن « وين » من خمسة أيام مضت ، ولا تزال « ادنا جيريت » تنتظر مكانا مناسبا من الارض حيث يوارى جسدها التراب . وبينما هى غارقة فى التفكير ـ وقد عضت على شفتها السفلى بأحد أنيابها الواهنة ، وزوت ما بين حاجبيها وزادت طاقتها أنفها اتساعا ـ راحت تخز النار بالقضيب الحديدى وخزات قوية رجت شبكة الاسياخ الحديدية فى قاع الفرن، وحكت ما لصق بجدرانه من أعلى . ونظرت فى ساعة معصمها . كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف ،

والمطر يهطل فى غزارة والحاح . انهم يتناولون الشاى فى الخامسة ، فاذا لم يمت هذا الشىء قبل ذلك الوقت ، فانها سوف تبتل بماء المطر وتضطر الى تغيير ثيابها . وفى الوقت ذاته ، كان ما شغل بالها أن أشياء « وين » كانت تحترق بطريقة طيبة رغم المطر الذى يثز من حولها ، ورغم أنه من آن لآخر كان غلاف لكتاب مشهور يرتفع من وسط الكتلة المحترقة . وبعث فيها التمرين على تحريك النار دفءا بدا كأنما وصل منها الى النخاع . وبدأت تترنم بأغنية وهى التى لم تكن لها قدرة على الغناء فى يوم من الايام . انها لم تؤمن اطلاقا بكل هذه الافكار ـ رغم أن مس فولر ذاتها كانت تميل قليلا الى هذا السبيل ـ عن وظيفة المرأة فى الحياة، ولكنها الآن رأت أن هناك الكثير مما يقال لصالح النساء . هذا ، على سبيل المثال ، كان عملها ـ وهو عمل ما كان أى رجل ليقوم به ، وعلى الأخص الدكتور هينيس من دون الناس جميعا. فالرجل فى مثل هذه الازمة ، سيكون ما أطلق عليه «وين» اسم « رياضى » ، وسيترك كل شىء لكى يأتى بالنجدة ، وسوف يأخذه بكل تأكيد الى داخل البيت . ولما كانت وظيفة المرأة فى الحياة هى أن تقيم بيتا سعيدا لزوج وأطفاله منها ، فانه اذا لم يوجد هؤلاء ـ كان الامر أتفه من أن يدع المرء عقله يجهد بالتفكير فيه ـ ولكن ـ

وصاحت مرة أخرى من خلف الظلال التى يرسمها ضوء اللهب : « كفاك ضجة . قلت لك ، لا . لقد رأيت بعينى رأسى كيف مات الآخرون » .

ولكن هناك حقيقة واقعة . ان المرأة التى غابت من حياتها هذه الاشياء ، يمكن مع ذلك أن تكون نافعة ـ بل أكثر نفعا من أى رجل فى بعض أحوال معينة. وراحت تضرب ذرات الرماد المستقرة كما يفعل عمال تعبيد الطرق ، لما تضم هذه الحقيقة من اثارة غامضة . كانت حبات المطر تطفىء جانبا من النار المتأججة ، ولكنها استطاعت أن تشعر ـ فيما كانت تستطيع أن ترى فى الظلام ـ بأنها قد قامت بعملها خير قيام . وكان فى قاع الفرن وهج أحمر باهت ، لايكفى لجعل الغطاء الخشبى يتفحم ان هى غطت بعجانبا من الفرن اتقاء المطر المتساقط. وبعد أن انتهت من هذا استندت الى قضيب تحريك النار وراحت تنتظر ، بينما سيطرت على كيانها ، نشوة عارمة من السرور المتزايد . وكفت عن التفكير وسلمت نفسها لما سيطر عليها من مشاعر . وقطع عليها سرورها الطويل صوت وقفت فى حياتها من قبل مرات عديدة تنتظر فى ألم وتوجع . ومالت الى الامام ، وراحت تصيخ السمع وهى تبتسم . لا يمكن أن تكون مخطئة . وأغلقت عينيها منتشية لسماعه . ثم انقطع الصوت دفعة واحدة .

وغمغمت فى صوت مرتفع قليلا :

« هيا استمر . ليست هذه هى النهاية » .

ثم جاءت النهاية واضحة تمام الوضوح فى لحظة سكون انقطع فيها سقوط المطر . وجذبت مارى أنفاسها المبهورة من بين أسنانها ، وارتعدت من قمة الرأس الى أخمص القدمين . وقالت راضية : « هذا شىء جميل » . ثم سارت الى البيت ، حيث حطمت جميع قواعد الرزانة بأن أخذت حماما ساخنا فخما قبل تناول الشاى ، ونزلت الى الطابق الارضى وهى تبدو ، كما قالت مس فولر حين رأتها تتكىء مسترخية فوق الاريكة المقابلة ، « وسيمة غاية الوسامة » .